﴿ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ لا تلائم الأولين، إذ لم يحسدوا ولا أخذتهم عين، بل أحيط بهم في أخيهم.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم﴾ دليل على خيفة ما عليهم لا مردّ لها، و«ان الحكم - المتوكلون» تبصرة لهم منه أن هذه الحائطة ليست لتغني عنكم من الله من شيء، ولكن التوسل بالأسباب لزام كل سلب وإيجاب، على علم أنه ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ لا للأسباب، لذلك «وعليه» لا سواه ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالمسموح لنا إنما هو التوسل بالأسباب، لا والتوكل عليها، بل هو على الله فـ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾.

فالإتكال - الاستقلال - على الأسباب إشراك بالله، والاتكال على الله فيما له أسباب دون توسل بها انعطال لها يخالف أمر الله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ ويخالف تكوين الأسباب في دار الأسباب، فإنما هو توسل صالح بالأسباب المناسبة المعنية لما تروم متوكلاً على الله، عارفاً بأنه ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾.

فـ «العين حق»[1] وتأثير الحسد حق: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[2]

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨: ١٧٣ قوله ﷺ والعين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر» وفيه أن رسول الله ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة، وفيه روى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال: إن جبرئيل عليه السلام أتاني فرقاني فقال: بسم الله أرقيك من كلّ شيء يؤذيك ومن كلّ عين وحاسد الله يشفيك قال ﷺ فأفقت وفيه روى أن بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلمانا بيضاً فقالت أسماء يا رسول الله أن العين إليهم سريعة فأسترقي لهم من العين فقال ﷺ لها: نعم وفيه دخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا: يا رسول الله أصابته العين فقال: أفلا تسترقون من العين. وفي المجمع عن النبي ﷺ أن العين حق والعين تستنزل الحالق.

(٢) سورة الفلق، الآية: ٥.

شراً بفعله عن حسد، أم تأثيراً من نفس الحاسد وكما تؤثر العين، فليست أسباب الشر لتنحصر في أعمال الجوارح، وتنحسر عن أعمال الجوانح، بل هي أقوى منها أحياناً، وكلما كانت الأرواح أقوى في خير أو شر فتأثيراتها كذلك أقوى من خير أو شر، في تقوى أم طغوى.

ولئن سئلنا كيف تؤثر العين وأضرابها و﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾؟ فالجواب أن «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» فكما أن سائر الشرور من سائر الأشرار ليس ليمنعها الله تكويناً إلّا لحكمة كما في نار إبراهيم، كذلك شر العين والحسد أماذا.

ومع كل هذه التفاصيل في تأثير العين والحسد، فلا عين ولا أثر من عين ولا حسد إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾:

دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ حيث أحيط بهم في أخيهم من أبيهم، بل وهكذا دخول فسح المجال لـ ﴿حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ وهو لقيا يوسف ولا معدّله ظاهرياً إلّا ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ وليس أمراً عادياً إلّا أن يدخل هو من غير الأبواب التي دخلوها، فله أن يستقبل أخاه ويؤويه إليه دونهم من حيث لا يعلمون، ثم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قد لا تمت بصلة لحاجة في نفس يعقوب إلّا أن يكون لقيا يوسف مما علمه كخلفيّة من خلفيات إرسال ابنه ودخولهم من أبواب متفرقة، وهنا يتأكد إنه لم يرسله لمجرد موثقهم ليأتنّه به.

أما أن دخولهم من أبواب متفرقة مخافة عين أو حسد أو حيطة، هو - فقط - ﴿حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ فلا يناسب ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ﴾ وهو

كسبب لـ «حاجة» وتعليل لها، ولا أن حاجته قضيت بذلك إذ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وليست هذه الحائطة التي تخلفت عن النتيجة حاجة مقضية.

إذاً فاللامح من جنبات الآية هو أن دخولهم من أبواب متفرقة قضى حاجة في نفس يعقوب، حيث سهل أمر المكيدة الصالحة ليوسف في إبقاء أخيه عنده وإلى لقيا والديه معه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن هذه الأسباب والحياطات في ترتيبها لا يغني عن أصحابها من الله من شيء فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وأن دخولهم هكذا قضى حاجة في نفس يعقوب، وأن يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ من طريقة لقضاء حاجته.

واحتمال آخر هو الآخر، أن دخولهم كما أمر ما كان يغني إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها دون أن يعلم، فقد قدم حيطة لرجوع ابنه ما لم يقضه، بل قضى حاجته الأصيلة دون أن يعلم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ...﴾ إذا يعني أن أمره أيّاً كان كان عن تعليم إلهي مهما لم يعلم أن النتيجة هي حصول أصل الحاجة.

وهذه من الرحمات الخفية الإلهية أنه قد يبتلي عباده الصالحين بما ظاهره العذاب ولكن باطنه من قبله الرحمة، يطلب أمراً ويدعو له ويقدم للحصول عليه كل إمكانياته، ويقضي الله له أمراً آخر دونه وهو حاجة أصلية، وما تطلّبه بالنسبة لها كمقدمة من حيث هو لا يعلمها.

وهنا ندرس ألّا مغني عن الإنسان أياً كان من الله من شيء في الأسباب التي يتوسل بها، حيث الإذن تكويناً في كل خير أو شر إنما هو من الله فـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ دون أية علة أو اسباب، فهو تمام العلل ومتممها، كما هو خالقها ومعلّلها، دون أن يكون هناك جبر كما لا تفويض، وإنما أمر بين أمرين.

كما وندرس إن على الإنسان تقديم كافة المحاولات والإمكانيات والحائطات للوصول إلى مرامه ومرامه دون استقلالية فيها ولا اتكالية عليها ولا على الله بترك الأسباب، اللهم إلّا فيما لا حول له ولا قوة فالدعاء من الله والاستدعاء.

وأخيراً ندرس من ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ أن الحائطة في قضاء الحاجة، لا سيما الملتوية الخطرة، أن تؤتى من أبواب متفرقة، فإن سدّت باب أو أبواب، فهنالك أبواب أخرى أو باب.

وهذه الحائطة الحكيمة تحلّق على كافة المتطلبات الهامة سلباً وإيجاباً، فالذي عنده نقود يخاف عليها، عليه أن يحافظ عليها في مكانات متفرقة، حتى إذا سرقت أم ضاعت من مكان، تظل البقية الباقية محفوظة.

إذاً فهذه الحائطة ضابطة سارية المفعول في كل الحقول، تبعّد عامليها عن الخسار، ويقربه إلى اليسار، كسبب ظاهري، والله من وراءه حفيظ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وطبعاً من إحدى عشر باباً ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ من أبويه، أتراه يعجل بإيوائه قبل استقبالهم جميعاً وقبل كل شيء، وفور دخولهم عليه؟ لا شك أنّ ذلك أوّل خاطر يساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ولا يكاد يصبر لشيء إلا أن يؤويه إليه، ففي دخولهم عليه من أبواب متفرقة - وهو عليهم رقيب - مجال له غير مريب أن يؤوي إليه أخاه قبل أن يستقبلهم، وقد آواه وكلمه غير طائل: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ تعريفاً له بنفسه في تأكيدات ثلاث، وفرع عليه: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فاترك كل أسى وبؤسى بما

كانوا منذ ذلك الزمن الطويل يفعلون بي وبك وبأبينا، فقد حظوت الحظوة التي رأيتها في رؤياي وأولها أبونا ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ...﴾.

هنا يطوي السياق كلما حصل مما ليس له أصل في القصص وعبرة لأولي الألباب، ليواصل ماله أصل، وهو الدرس الذي يلقيه على أخوته ليعتبروا به إن كانوا من أولي الألباب.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

السقاية هي المشربة وطبعاً كان لها قيمتها الغالية، لولاها لم يؤذن مؤذن بما أذّن حيث الرخيص لا أذان فيه عند الملك الذي يرد عليهم بضاعتهم من ذي قبل، فلتكن ذهبيته مرّصعة أماهيه؟

والرحل هو ما يوضع على البعير للركوب والحمل، والعير هم القوم الذين معهم أحمال الميرة أماهيه، اسماً للرحال والجمال الحاملة للأحمال ميرة وغير ميرة، فليس العير حميراً لذلك ولمكان ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ خلاف ما يروى، وكما في التورات.

وهنا جاعل السقاية هو يوسف حيث الضمائر المفردة كلها راجعة إليه، ولكن المؤذن هو غيره لمكان ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ دون «أذن» كما ﴿جَعَلَ﴾ وليس مؤذن - بطبيعة الحال - يؤذن في هذه المهمة الفادحة إلّا بأمره الصراح[1] إذاً فذلك من أذانه حيث كان بإذنه ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وحتى إذا لم

(١) المصدر ج ١٣٤ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى صالح بن سعيد من رجل من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزوجل في يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] قال إنهم سرقوا يوسف من أبيه إلا ترى.. أقول: فقول الله في يوسف أيتها العير، دليل أنه من مقاله لا المؤذن من عند نفسه، وكذا قول أبي جعفر عليه السلام فيما مضى ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ...﴾ [يُوسُف: ٧٠].

يكن بإذنه فسكوته عن ذلك إذن منه صراح وهو الممكّن في الأرض، فكيف يترك النهي عن المنكر، وتقريرات الأنبياء كمقالاتهم وأفعالهم حجة، فسواء أكان الأذان الإعلام بإذنه الصّراح وهو طبيعة الحال في موقفه العظيم، أم لم يكن، بخلاف الحال، فهو على أية حال مرضي عنده مباح.

لقد كانت حيلة من الصديق حيث يدس صواع الملك في رحل أخيه، تنفيذاً لتدبير إلهي يخصه في ذلك المشهد المثير المغير، ولكن ما هو مصير ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾؟ ولم يكونوا سارقين ولا واحد منهم في رحله صواع الملك! والمكيدة الإلهية بعيدة عن الضعف والكذب والظلم، قاصدة جزاءً العدل الوفاق للظلم، كيد عادل قاصد هو جزاءً كيد ظالم فاسد كاسد، فماذا يعني - إذن - ذلك الأذان المعلن أمام الجماهير، متهماً ولد نبي الله يعقوب ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾؟ فيرتاع إخوته لذلك النداء وهم أولاد النبي وأحفاد شيخ المرسلين! أكان وجود الصواع في رحل أخيه - دون سرقة منه - يسمح لاتهامهم كلهم ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾؟ وحتى لو كان سارقاً في الحق فنسبتها إلى العير - وهم أحد عشر - تهمة جمعية ومسّ من كرامة البرءاء العشرة، وحق القول في مثله «واحد منكم سارق» حيث لا يسرق صواعاً واحداً إلّا واحد، فـ ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ إذا فرية قاطعة حتى لو كانت هناك سرقة، ولكنه كذب وفرية إذ لم تكن سرقة بتة، وكما لم تكن البتة! إنهم في هذا المسرح ما سرقوا شيئاً، وما كذب الصديق، حيث الحيلة كانت بأمر الله، وهو نبي الله فكيف يكذب، وإنما ورّى توريةً صادقة حيث عنى من ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ أن سرقوا يوسف من قبل! وكما يروى تصديق الصديق عن الصادق: «ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى سرقتم يوسف من أبيه»[1]

(١) نور الثقلين ٢: ٤٤٢ - القمي في حديث سئل الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] قال: ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى سرقتم يوسف من =

«ألا ترى انه قال لهم حين قالوا ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ولم يقولوا «سرقتم صواع الملك» إنما عنى انكم سرقتم يوسف من أبيه» وهم لا يشعرون! هنا ندرس من أذان الصديق درسين اثنين: أحدهما أن التورية مسموحة إرادة الإصلاح»[1] وإلّا فهي كذب إذ ينتج نتاجه مهما أضمر قائله صدقاً، فالضرورات تقدّر بقدرها، فلا يسمح للكذب المطلق ما دامت التورية ممكنة، ولا ضرورة لله ولنبي الله في كذب والتورية مورّية صادقة!

= أبيه وفيه ٤٤٤ ح ١٢٩ في أصول الكافي بإسناده عن عطا عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا كذب على مصلح ثم تلا ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠]. ثم قال: والله ما سرقوا وما كذب ثم تلا ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] ثم قال: والله ما فعلوه وما كذب.

أقول: ما كذب دليل التورية، حيث الكذب كذب مهما كان مسموحاً في الإصلاح والضرورة، وفيه عن علل الشرائع بإسناده إلى أبي بصير؟؟؟؟ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا خير فيمن لا تقية له ولقد قال يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] قال: ما سرقوا وما كذب، أقول: التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم وهي لا تسمح للكذب ما أمكنت التورية كما هنا وفيه ١٣١ عن روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير قال قيل لأبي جعفر عليه السلام وإنا عنده أن سالم بن أبي حفصة وأصحابه يروون عنك أنك تكلم على سبعين وجهاً لك منها المخرج فقال: ما يريد سالم مني أيريد أن أجيء بالملائكة والله ما جاءت بهذا النبيون ولقد قال يوسف عليه السلام أيتها العير إنكم لسارقون «والله ما كانوا سارقين وما كذب».

(١) نور الثقلين ٢: ٤٤٢ القمي بإسناده عن الحسن الصيقل قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنا قدر روينا عن أبي جعفر عليه السلام في قول يوسف: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يُوسُف: ٧٠] فقال: والله ما سرقوا وما كذب وقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فقال: والله ما فعلوا وما كذب قال فقال أبو عبد الله عليه السلام ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا إلا التسليم قال فقال: إن الله أحب اثنين وأبغض اثنين أحب الحضر فيما بين الصفين وأحب الكذب في الإصلاح وأبغض الحظر في الطرقات وأبغض الكذب في غير الإصلاح أن إبراهيم عليه السلام إنما قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] إرادة الإصلاح، ودلالة على أنهم لا يفعلون. وقال يوسف عليه السلام إرادة الإصلاح.

أقول: هنا سميت التورية الصدق كذباً مسموحاً للإصلاح، وفي روايات أخرى أنه ما كذب وما سرقوا والجمع أن التورية صدق من جهة تخفى وكذب حسب الظاهر، ولا يجوز الكذب المطلق ما دامت التورية في موارد الإصلاح.

مهما كان «لا كذب على مصلح»[١] وليست الغاية التي يبتغيها الصديق درساً لإخوته بالتي تبرر هذه الوسيلة الهائلة، فإنها على أية حال مكيدة إلهية وليس الله ليضطر في كيده إلى ما حرّمه من كذب وتهمة! وثانيهما أن استلاب نفس محترمة هو من السرقة، وكيف لا تكون سرقة واستلاب شطر من دينار سرقة مهما اختلف الحكم بين سرقة وسرقة، وهم قد استلبوا يوسف من أبيه إخراجاً عن ملكته وملكة أبيه، بمكيدة خائنة، وهم مجمعون ان يجعلوه في غيابت الجب، أوليست هذه سرقة، وهي أسرق سرقة تضم معها كذبة حين استلبوه، وحين رجعوا إلى أبيهم وقد تركوه فيما تركوه، وألقوه في غيابت الجب إساءة إليه وعلّ فيها هتف نفسه، وهذه ثالوث منحوس تحيط بأصل السرقة، أليسوا يستحقون بعد هذه الأربع أن ينسبوا إلى واحدة منها ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ ومهما كان بن يامين بريئاً وقد شملته العير، فالعشرة الآخرون كانوا سراقاً وخونة، وقد أسرّ يوسف إلى أخيه هذه المكيدة، ليستثني عن العير السارقين، فكان يرضى ذلك التعميم أو يؤكده وصولاً إلى ﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَآ﴾ فهل إن ذلك التعميم مس من كرامته، أم خارج عن أدب التعبير في أحد عشر رجلاً واحد منهم بريء والباقون خونة سارقون؟ . .

وقد نحتمل أن يوسف عرّف رجال الحاشية بموقف المكيدة، فلم يكن في ذلك الشمول مهانة لأخيه في نفسه حيث عرفه! ولا في أنفس رجال الحاشية أن عرفهم، وأما في أنفس إخوته فليس ليهمه ذلك أمام البغية المهمة، كيف وقد علموا - في ظنهم - أنه سرق، وشهدوا بذلك عند أبيهم ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ولم يكن له في هذه وتلك تغير حالة فإن الضرورات تبيح المحظورات، حتى ولو كان ذلك له مخطوراً.

(١) مضت روايته عن الرسول ﷺ.

ذلك ولكن ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ دليل أنه ما عرفهم ولا حتى المؤذن مكيدته، إذ لو عرفهم كان يعرفه الملك، وكيف يأخذ أخاه بمكيدة يعرفها الملك؟.

ولئن سئلنا أن الشرعة الإلهية لا تسمح الجهر بالسوء وقد جاهرهم به، اللّهم إلّا شهادة بشروطها عند الحاكم، ولم تكن هناك من يوسف شهادة ولا حكم؟ فالجواب ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وقد ظلم يوسف بأقبح الظلم فكيف لا يجهر بسوء ما ظلم، وهو كاتم ظلمه طيلة سنين حتى أتى دوره الصالح لمكيدة بأمر الله، فقد صدق فيما جاهر وترك كثيراً حين قال مؤذنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ تلمح أن المؤذن أذن وهم يرجعون، ثم أقبلوا عليهم، و﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ إشارة منهم أننا لسنا بسارقين، فلعله فقد عنكم صواع الملك، والمحتملات فيه ثلاث ثالثها أنه عند أحدنا، وقبل ذلك قد يكون تحت طعام أمّاذا، أو عند أحدكم أمن ذا، فلا تحتّموا أننا سرقناه.

ورجال الحاشية بمن فيهم المؤذن، هنا لا يكررون القولة الأولى بصيغة أخرى «سرق منا صواع الملك» وإنما ﴿نَفْقِدُ﴾ مما يؤيد أن الأولى تورية لا تعني سرقة الصواع، ثم رغّبوا ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ كجعالة على وجدان الضالة ﴿وَأَنَا۠﴾ الذي هو طبعاً المؤذن ﴿بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل ضمين، أم قائم بأمره رئيس، وعلى أية حال فقد تكفل هذا الجعل لمن جاء به، ولو كانت سرقة فجزاءه غير جزائه» ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

فقد تحول مسرح السرقة وجزاءها إلى مسرح وجدان الضالة وجعله وأين سرقة من جعالة؟.

أترى ﴿نَفْقِدُ﴾ ليس كذباً وهم ما فقدوه حيث هو ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾؟ نفقد - في نفسها - تعني ليس هو عندنا، علمنا مكانه أم جهلنا، وغاية أمره أن يكون تورية كالأولى فقدانا على علم بمكانه، ثم والقائلون ﴿نَفْقِدُ﴾ جماعة فليس هو الصديق أم ولا المؤذن، فقد يجوز أنه ما أخبرهم، ولا المؤذن بما فعل، كما يدل عليه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، كما وقد يقربه أن الصديق هو الذي ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ دونهم، ولا حتى المؤذن، فقد أمر أن يؤذن: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ ثم أمروا أن يغيروا القول في مسرح الصراحة ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ ثم ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ انصراف عن اتهامهم في سرقة الصواع ومجاراتهم في ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ إذا ففتّشوا عنه ولمن جاء به جعله، وطبعاً ليس المجيء به عن سرقه أو من الإخوة تفتيشا لأنفسهم بعض البعض، وإنما من غيرهم أم في نفس القصر، مما يؤكد أن تهمة السرقة الجاهرة لا تتجه إلى صواع الملك.

وعلى أية حال فهم مستيقنون ببرائتهم، فيستندون إلى ثقتهم فيهم في ماضيهم وحالهم واستقبالهم:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

قسما بالله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ من حالنا وحلنا وترحالنا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في رحلاتنا إلى هاهنا حالاً، و﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أننا ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ ماضياً، وتراهم كيف تاكدوا من علمهم فيهم لحد الحلف بالله، برائة لهم في حالهم وما مضى، وهذه حجة صارمة - لو علموا - على برائتهم في إنكارهم واستنكارهم سرقتهم؟.